بسم الله الرحمن الرحيم

٢/ ١١/ ٢٠١٦م

جيل النهوض الحضاري.. بين الخبرة والإنجاز والإبداع

ألقيت في ندوة ملتقى الحضارات - الرباط

نبيل شبيب

١- تمهيد: النهوض وجيل النهوض حضاريا

٢- بعض مواصفات النقلات الحضارية المتعاقبة

٣- بعض مواصفات جيل النهوض الحضاري

٤- بعض الواجبات الفردية على جيل النهوض

٥- وقفات معاصرة ونظرة استشرافية

تمهيد: النهوض وجيل النهوض حضاريا

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله والسلام عليكم ورحمة الله
اسمحوا لي بالتنويه أن ما أقدمه في الوقت المحدد للحديث هو مجموعة أفكار مطروحة للحوار، وحرصا على حدود الوقت المتاح لا أرفقها بنصوص واستشهادات، إنما هي عصارة ما استفدت منه عبر الاطلاع على ما كتب آخرون ونشروه في الموضوع المطروح، وهو موضوع كبير، فأرجو أن أكون عند حسن الظن وأسأل الله التوفيق لتقديم ما تتوقعون تقديمه من خلال إكرامي بهذه الدعوة للحديث بينكم، والحوار معكم، حول قضية يمكن وصفها بأم القضايا التي نواجهها في بلادنا وعالمنا وعصرنا في الوقت الحاضر.

نحن عندما نتحدث عن مشكلة في قطاع التعليم، أو التربية، أو الإعلام، أو السياسة، أو الأمن، أو سوى ذلك مما نعطيه عناوين مثيرة كمكافحة الفقر والجهل والفرقة والتفكك الاجتماعي، إنما نتحدث عن إحدى المشكلات أو إحدى القضايا التي تجمعها الكلمة الأم: النهوض.
وبقدر ما نحتاج إلى التخصص في كل ميدان من الميادين المذكورة وسواها، كميادين الفكر والأدب والفن والثقافة والتقنية والصحة، بقدر ما نحتاج أيضا إلى تكاملها مع بعضها بعضا، ليتكون مسار مشترك في اتجاه نسيج من النتائج المرئية ينشأ من هذا التخصص والتكامل، وهو ما تعطيه أدبيات التأريخ وصف النهوض الحضاري.
لا يمكن الفصل في العمل من أجل النهوض بين مجال ومجال، بل لعل هذا الفصل يسبب من العقبات ما يجعل الإخفاق مرجحا في كل مجال بشري أو مادي أو إنساني على حدة، وعندما نقول بضرورة التكامل نتحدث واقعيا عن انسجام ضروري بين الأهداف والإنجازات التي يراد الوصول إليها أو التي تتحقق على أرض الواقع في كل مجال على حدة.
الانسجام بين إنجازات فريق متخصص عامل في التعليم أو التربية، وآخر متخصص في الهندسة العمرانية أو التقنية، وثالث في مجال آخر وهكذا، ضرورة محتمة، كيلا تتناقض النتائج فيما بينها وتتعارض، مع تجنب أن يضيع جدوى منجزات فريق بالنسبة إلى فريق آخر، وضمان أن يوظفها الجميع، كل للارتفاع بمستوى ما يعمل هو له، مستعينا بمستوى ما يصل إليه الآخر، ومثل هذا التكامل يتطلب وجود رؤية مستقبلية مشتركة بخطوط عريضة، وإن وجد اختلاف في تفاصيلها أو تعددت الآراء بشأن الوسائل والأدوات المؤدية إليها.
باختصار:
النهوض الحضاري هو العنوان الجامع للتحرك في علاج مختلف مشكلات تخلفنا أفرادا ومجتمعات، والوصول من خلال ذلك إلى مستوى حضاري رفيع، وهذا هدف كبير له قيمة نوعية ترتبط بالرؤية البعيدة المدى، التي تستند إلى منظومة قيم مشتركة، وتتحقق من خلال جهود تخصصية متكاملة.

. . .

هذا ما يضعنا أمام ثلاثة واجبات أولية ليتحول الكلام في هذه القضية إلى عمل والسكون إلى حركة:

(١) استيعاب الواقع القائم استيعابا عميقا باعتباره هو منطلق بناء المستقبل.. وهذا واجب معرفي فردي.

(٢) استشراف الكليات الكبرى لمعالم النهوض المرجو ضمن رؤية متكاملة.. وهذا واجب فكري جماعي.

(٣) سلوك الطرق المؤدية من الواقع إلى المستقبل والتأهل المتطور المتجدد لذلك.. وهذا واجب عملي تراكمي.

السؤال: من يحمل على عاتقه هذه الواجبات الثلاثة ويحسن أداءها؟

هذا مجرد صياغة أخرى للسؤال: من يحقق النهوض الحضاري؟ أو من ينهض بنفسه مع سواه؟

عاطفيا أو تحت تأثير الألم مما نرصد نقول لأنفسنا: نحن في سلم النهوض الحضاري في نقطة تحت الصفر.

وموضوعيا نقول: نحن تجاوزنا من حيث سلوك طريق النهوض الحضاري نقطة الصفر.

وفي الحالتين لا يوجد أمامنا عمليا بديل آخر:

إن عملية النهوض المركّبة لا تتحقق إلا من خلال أعداد كافية من الجيل الذي تنفسح أمامه الفرصة الزمنية عمرا، وتتوافر له أكثر من سواه شروط اكتساب المعرفة لاستيعاب الواقع واستخدام الوسائل الكفيلة لتوجيه معطياته ومستجداته نحو نهوض حضاري.

باختصار:

جيل النهوض الحضاري هو الجيل الذي يمتلك أكثر من سواه أسباب الإنجاز والعطاء، ما بين الشباب المبكر وبين الكهولة بعد أن يبلغ الإنسان أشدّه، وهذا الجيل مسؤول عن متابعة طريق العمل للنهوض الحضاري في بلادنا وعالمنا وعصرنا.

والتعبير هنا مقصود ودقيق:

هو جيل النهوض الحضاري، وليس هو الجيل الذي سينهض حضاريا بالضرورة، أي أنه الجيل المسؤول عن تحقيق هدف النهوض الحضاري.. ولكن قد ينقضي الزمن كما انقضى مع من سبقه من أجيال حملت هذه المسؤولية أيضا، وسيان كيف نقوّم حجم إنجازها، فالثابت أننا لا نزال نفتقد النتائج من حيث ظهور معالم النهوض الحضوري المطلوب على أرض الواقع شاقوليا وأفقيا.

إنما يتحول الجيل الحضاري الحالي من جيل القدرة على العطاء إلى الجيل الذي يصنع النهوض فعلا، عندما ينهض بمسؤولياته ويؤدي واجباته، متفوقا على من سبقه، ولا سبيل إلى ذلك دون توافر ما يكفي من المتخصصين المتفوقين في مختلف الميادين، المتأهلين عبر قدر كاف من المعرفة العامة، وعبر الوعي العميق المرتبط برؤية مستندة إلى منظومة قيم جامعة، إذا ما بذلوا جهودا كبرى، متكاملة ومتوالية، لتحقيق نتائج متراكمة نحو الهدف البعيد.

بعض مواصفات النقلات الحضارية المتعاقبة

يسأل كثير منا: من أين نبدأ؟

استيعاب الحاضر ضروري للإجابة، ويعين عليه استقراء بعض الشروط من اللحظات التاريخية ما بين النقلات الحضارية السابقة.

بين أيدينا سلسلة دورات حضارية متعاقبة، نعايش الدورة الحالية منها، وفي تعاقب الحضارات بمعنى انكماش بعضها وانتشار بدائل لها نلاحظ:

ننظر بعين الرهبة إلى الهوة العلمية والتقنية والإنتاجية الكبيرة الفاصلة حاليا بين قطاعات بشرية متحضرة وأخرى متخلفة.. ولكن أليس هذا من المعالم التاريخية المواكبة لجميع النقلات الحضارية من قبل؟

لسنا هنا أمام بداية جديدة.. لقد كان اكتشاف النار في التاريخ الحضاري البشري مرة واحدة.. لم تتكرر، وكان اختراع العجلة مرة واحدة.. لم تتكرر، وهذا ما يسري على الكهرباء وابتكار الطائرة أو الحاسوب وهكذا مع كل ما نعتبره في منزلة حجر زاوية في التقدم التقني البشري.

لا يوجد ما يستدعي التفكير أصلا بأن نبدأ من الصفر في هذه المسيرة البشرية المشتركة المتعاقبة، ولا يمكن ذلك أصلا، بل هي مسيرة يبني جديدها على ما سبقه باستمرار، فلا ترتبط مضمونا بمنظومة قيم ولا رؤية، ولا يوجد ما يحول بين توارثها، بغض النظر عن هوية عرق أو دين أو لغة، فكأنها جسد واحد متطور عبر جميع الدورات المتعاقبة للحضارات البشرية.

بالمقابل: نميز بطبيعة الحال بين الدورات الحضارية البشرية، فمنها الحضارات القديمة كالفينيقية والفرعونية والإغريقية والرومانية، ومنها الحضارة الإسلامية، ومنها الحضارة الغربية التي وصلت إلى عصرنا هذا.

لا يوجد في أي عصر من العصور قوم أقاموا صرح حضارة متميزة عن حضارة سابقة، من خلال البدء بنقطة الصفر علما وتقنية وإنتاجا ماديا، في أي مجال من المجالات، بل كانت حضارتهم المتميزة من حيث جسدها العلمي والتقني والإنتاجي استئنافا لما سبقها وانطلاقا من اللحظة التاريخية للنقلة الحضارية وتليها إضافة المزيد في فترة تالية من الزمن. كيف نميز إذن بين حضارة وأخرى في هذه السلسلة البشرية المتعاقبة؟

المؤرخون لحضارة الإغريق لا يحددون عاما بعينه لبدايتها، بل يربطون انطلاقها بحقبة الفلاسفة الأقدمين. واجتهاداتهم الفلسفية المتعددة، وقد يبدؤون بكبيرهم سقراط، وكان تعدد التوجهات الفلسفية يدور حول محور قيمي مشترك، ميز الحقبة الإغريقية عما سبقها من حقب فارسية وصينية وفرعونية وهندوسية.

المؤرخون للحضارة الإسلامية أيضا يتحدثون عن بداية النهضة العلمية والتقنية والإنتاجية عبر مدرسة الحكمة وحركة الترجمة، ولكن يربطون وصفها بالإسلامية تمييزا عن غيرها بنزول الوحي على محمد صلى الله عليه وسلم، أي المنظومة القيمية، التي جمعت كل ما يُنسب إلى النهوض الحضاري الإسلامي من بعد.

المؤرخون للحضارة الغربية ينهجون النهج نفسه عندما يذكرون عمالقة الفلسفة الإنسانية مثل مؤسسها الفيلسوف الشاعر فرانسيسكو بيتراسا المتوفى عام ١٣٧٤م، أو الفيلسوف اللاهوتي Geert Geertsen المتوفى عام ١٥٣٦م، ثم عمالقة فلسفة التنوير أمثال كانط الألماني وفولتيير وروسو الفرنسيين وغيرهم، وإلى الفلسفة الإنسانية وفلسفة التنوير استندت منظومة القيم الأولى لمسيرة النهضة الحضارية الغربية وسرعان ما انطلقت عجلات متابعة المسيرة البشرية المشتركة للتقدم العلمي والتقني والإنتاجي، والجدير بالتنويه هنا أن الفلسفات الحداثية ظهرت في وقت متأخر.

ونعلم أن الوضع القيمي الراهن للحضارة المعاصرة موضع نقد كبير لدى المفكرين الغربيين، ولعل من أشهر الناقدين ما يعرف بنادي روما، ومدرسة فرنكفورت ويمكن أن نضيف إليهم فلاسفة ما بعد الحداثة. باختصار: **النقد موجه لضوابط المسيرة الحضارية الحالية، أو بتعبير أوضح لتغييب مفعول منظومة القيم، ولا أحد يرى بأسا بطبيعة الحال فيما يتحقق من تقدم تشير إليه الثورات التقنية والألكترونية ومنتجاتها.**

نريد النهوض.. ومن الأهمية بمكان الجواب بوضوح على السؤال: من أين نبدأ؟

الأوروبيون قبل بضعة قرون بدؤوا في النقطة التي وصل إليه تقدم العلوم والتقنيات في الحضارة الإسلامية المجاورة، ولكنهم أعطوا المسيرة الجديدة حاضنة قيمية من خلال فكر إنساني تنويري نهضوي جديد في لحظة تاريخية شهدت تراجع مفعول المنظومة القيمية في واقع ما كان سائدا تحت عنوان الحضارة الإسلامية.

هذا ما جعل النهوض الأوروبي نقلة حضارية وليس مجرد خطوات جديدة في مسيرة بشرية متعاقبة لتقدم علمي وتقني. وشبيه ذلك ما جعل النهوض الإسلامي نقلة حضارية في حينه. وهذا ما يسري على كافة اللحظات التاريخية لكل نقلة من حقبة حضارية بدأت تنهار قيميا وهي في أوج تقدمها العلمي والتقني والإنتاجي، إلى نهضة حضارية تصعد قيميا وتستلم راية التقدم العلمي والتقني والإنتاجي لتتابع كتابة صفحات التاريخ البشري.

بقدر ما نشهد مزيدا من الثغرات الكبيرة المتنامية بأخطارها على الإنسان نفسه في الوقت الحاضر، بقدر ما يتأكد لنا أن النهوض الحضاري الإنساني المطلوب لم يعد قابلا للتحقيق دون حدوث نقلة حضارية تاريخية، تفتح بوابة حقبة جديدة.

مهما حققنا من ألوان التقدم في الميادين المحسوسة، لن نحقق نقلة نهوض حضاري دون وعاء قيمي يحمل مسيرة النهوض، وإذا قال بعضنا، نعم لأننا مسلمون حريصون على قيم ديننا.. فهذا أمر عقدي طبيعي ولا غبار عليه، ولكن حتى إذا تجردنا عن ذلك، يبقى ثابتا أن بناء النهوض الحضاري لم يقم من قبل ولا يقوم الآن دون حاضنة قيمية هي بمثابة الجذور للأعمدة الأساسية في أي بناء، وما نستطيع طرحه لننهض مع سوانا، هو الفكر الإنساني الحضاري المنبثق عن إسلامنا عقيدة ومنهجا للمسلمين، ومنهجا عادلا مشتركا مع سواهم من البشر.

باختصار: **الحالة الحضارية هي حالة إنسانية بشرية، محورها سعادة الإنسان فردا ومجتمعا، والإنسان كائن معقد لا تتحقق سعادته دون أن تشمل ما يتعلق بروحه وجسده وعلاقاته الاجتماعية.**

بعض مواصفات جيل النهوض الحضاري

لا يمكن حصر جميع المواصفات المطلوبة من جيل النهوض الحضاري ليسلك طريق النهوض، فهي من قبيل ما يشمل بضعا وسبعين شعبة، تبدأ بالإيمان وتصل إلى إماطة الأذى عن الطريق، ولكن يرجى أن نستفيد من تسجيل بعض الملاحظات حول المطلوب عبر تلك المواصفات:

أولا: الحد الأدنى

ليس المطلوب اجتماع تلك المواصفات جميعا في فرد من الأفراد ليكون نواة نهوض من جيل النهوض الحضاري.. إنما يوجد حد أدنى مشترك من المعرفة والوعي والعمل، وتوجد قواسم مشتركة يحتاج إليها الجميع لا سيما ما يرتبط من المواصفات المعنية بالعلاقات الاجتماعية.

ثانيا: التفوق

لا غنى في اكتساب العلوم والمهارات عن التفوق لأداء دور النهوض في النقلة الحضارية التي نعيشها، أو نريد أن نصنعها لنعيشها، فهي تعني امتلاك زمام مسار حضاري إنساني بشري، وهذا مستحيل دون أن يكون إنجازك في الميدان الذي تتخصص فيه أكبر وبالتالي أسرع من إنجاز سواك من الدائرة الحضارية التي بدأت تفقد الزمام، وإلا بقينا في المؤخرة.

ثالثا: التكامل

التفوق في مجال يعني حمل مسؤولية الريادة والقيادة فيه، ويعني تلقائيا عدم التفوق بالضرورة في مجال آخر، وبالتالي لا بد أن يكون كل فرد متفوق مصدر عطاء دون استعلاء ويكون في الوقت نفسه مستعدا للأخذ من سواه دون استخذاء، وهذا جوهر عنصر التكامل أو اللبنة الأولى فيه لتتراكم الإنجازات وتتعاظم.

رابعا: القيادة

لا يوجد في عالمنا وعصرنا ولم يوجد من قبل، ولا يمكن أن يوجد ما يسمى القيادة الفردية.. لا توجد بالمعنى الشامل الذي أصبح كثير منا يتوهمه، عندما نتساءل عن صلاح الدين في عصر الهزائم والنكبات، أو عن عمر بن الخطاب في عصر حشر السياسة حشرا مهينا في كلمة ممارسة السلطة، ويكفي التنويه أن صلاح الدين كان قائدا عسكريا وابن الخطاب رجل دولة، ولم تكن لأحدهما منزلة القيادة والريادة في الفقه مثلا، أو في الفنون العمرانية مثلا آخر. لا بد في إطلاق مسيرة النهوض الحضاري أن يتأهل أفراد الجيل الذي وصلت الراية إليه، للتفوق في مختلف الميادين على أساس تعدد القيادات الجماعية فيها وتكاملها.

خامسا: الإبداع

إذا كان للنهوض روح يتحول بها من جسد جامد إلى حياة نابضة فروحه الإبداع، والإبداع هو ذروة التأسي بمن سبقنا على طريق زراعة البذرة الأولى لصناعة الحقب الحضارية الماضية، ولا سيما رسولنا محمد صلى الله

عليه وسلم وصحبه الكرام. لقد عاشوا عالمهم وعصرهم، واستوعبوه، وتلقوا من الوحي منظومة القيم للحياة البشرية فجعلوا منها وعاء حضاريا.. فانطلقوا من واقعهم آنذاك، لصياغة الحياة البشرية صياغة جديدة، أي إبداعية في عصرهم، فإن قلدناها كما هي بأشكالها الظاهرية ووسائلها آنذاك، نكون مقلدين فحسب، ولا نون مبدعين في عصرنا، أما إذا استوعبنا عالمنا وعصرنا، وانطلقنا من واقعنا الآن، لصياغة الحياة البشرية صياغة جديدة الآن، فآنذاك فقط نتخذهم قدوة وأسوة بالمعنى اللغوي والعقدي والحضاري. وليس من الاسترسال أن نلاحظ هنا أننا شهدنا في تاريخنا الحديث محاولات إبداعية وأصبحنا نساهم في وأدها بعد فترة وجيزة من الزمن، ومن الأمثلة على ذلك تقييد مسيرة الإصلاح بأغلال التقليد لمن أبدعوا في عصرهم أساليب الإصلاح الحديثة آنذاك مثل الأفغاني وأقرانه، وتقييد مسيرة العمل الإسلامي الحركي بأغلال التقليد لمن أبدعوا قبل زهاء قرن من الزمن وسيلة العمل الحركي ولم يقفوا عند حدود العمل الإصلاحي، ثم الدفاع عن الأشكال المتعددة التي تفرقت بها السبل تحت هذا العنوان أو ذاك. كلا.. إن الإبداع الذي نحتاج إليه من جيل النهوض الحضاري هو روح ما صنع أولئك فعلا، لتظهر الآن، **صيغة جديدة للعمل من أجل التغيير ونهوض حضاري، تنطلق من واقعنا الآني، وتلتزم بوعاء قيمنا الشاملة لجنس الإنسان، وتسلك سبلا إبداعية في استخدام أحدث الوسائل والأساليب المعاصرة، مسترشدة بثوابت الرؤية الحضارية المستقبلية المتوافق عليها.**

وفي ميدان التنظيم تخصيصا نحتاج إلى الإبداع، فالنجاح التنظيمي مرتبط بالتخصص والإدارة والتنمية البشرية ومرتبط بالتكامل عبر وسائل التشبيك الحديثة وليس عبر طرق تنظيم الجماعات الشاملة لمختلف الميادين وإن كانت صالحة لفترة زمنية مضت.

رغم الوقوف عند رؤوس أقلام حول بعض المواصفات المطلوبة في جيل النهوض الحضاري، لا يتسع المجال للمزيد، فهذا باب واسع، إنما تجدر الإشارة أيضا إلى وجود مواصفات سلبية ينبغي التحذير منها، ولا تخفى علينا، مثل التقوقع والتعصب والأنانية والغرور وتبرير وسائل مرفوضة بالغاية المطلوبة المفروضة.

بعض الواجبات الفردية على جيل النهوض

كما أن المواصفات المطلوبة من جيل النهوض عديدة كذلك الواجبات الفردية المطلوبة، وهذه يمكن أن يستشير الفرد بصددها، ولكن المسؤولية مسؤوليته، والقرار قراره، لا سيما فيما يستطيع أو لا يستطيع، ونعلم أن الدول الحديثة لا تقرر لمواطنيها شيئا من ذلك ولكن تضع الأطر العامة فتحدد مثلا الحاجة إلى مزيد من الأطباء لبلوغ الاكتفاء الذاتي ومستوى جيد من الصحة العامة، ثم يبقى من شأن كل فرد على حدة أن يقرر دراسة الطب والتخصص الذي يختاره لنفسه أو يقرر لنفسه طريقا آخر.

عندما تقصر الدول المتخلفة في تحديد الأطر العامة التي تحتاج إلى دراسات وتقنين وتمويل، يصبح من واجبات جيل النهوض أن ينفر منهم فريق يتخصص في العلوم الاجتماعية والإدارية والإحصاء ويشكل معاهد خاصة للبحوث والدراسات فيطرح الأطر العامة ويكون بذلك رديفا للمسؤولين في بلده ومعينا لجمهرة المواطنين.

يمكن اختصار جملة الواجبات الفردية على جيل النهوض بعبارة واحدة:

اصنع بإتقان ما تستطيع، واعمل لتنمية إمكاناتك باستمرار للتفوق فيه، ولا تغفل عن الحد الأدنى المشترك من المعرفة والوعي ولا عن القواسم المشتركة مع سواك.

من الأخطاء التي انزلقنا إليها في جيل مضى، أن التربية الجماعية توهمت إمكانية صناعة نماذج متطابقة أو متماثلة من البشر، فكانت برامج التأهيل والتوعية تطالب جميع الأفراد بكل شيء، بدءا بحفظ القرآن الكريم والفقه، مرورا بسد الثغرات تارة في التخصصات التقنية وأخرى في التخصصات الاجتماعية، انتهاء بالممارسة السياسية. هذا يتنافى مع واقع التنوع البشري الذي حصرناه للأسف في "ألسنتكم وألوانكم" وهو شامل للمواهب والاستعدادات والقدرات والطاقات.

ليس مطلوبا من الفرد أن يتحرك بنفسه لسد ثغرة خطيرة من الثغرات إذا كان غير قادر ولا مؤهل لذلك.

وليس مطلوبا من الفرد أن يتفوق ويبدع في غير مجال تخصصه، ولن يستطيع إن حاول ذلك.

وإذا أخذنا الميدان السياسي مثالا يمكن القول إن من واجبنا العمل على متابعة الحدث السياسي والاستعانة ببعضنا بعضا في معرفة خلفياته وتطوراته والقوى الفاعلة فيه، فهذا ما يمكن وصفه بالوعي السياسي الواجب كحد أدنى وإن تفاوتت درجاته فيما بيننا، ولكن فهم السياسة وتحليل أحداثها علم قائم بذاته يحتاج لمن ينفر لطلبه ليكون من المرجعيات فيه، وأما ممارسة السياسة فتختلف عن الوعي السياسي وعن العلوم السياسية، وتحتاج لمواصفات معينة فلا يصح أن يشارك كل فرد في ذلك، ولا توجد حاجة أو ضرورة لتلك المشاركة.

الوعي السياسي واجب فردي وضرورة لأنه يحمي الفرد من أن يكون إمّعة يُساق دون فهم وتفكير.

والعلوم السياسية واجب كفائي وضرورة لبلوغ مستوى التحليل والترشيد تجاه الأفراد وتجاه ما يسمى النخب.

وممارسة السياسة مسؤولية في الدنيا والآخرة ينبني عليها الكثير على مستوى الأفراد والمجتمعات، فلا بد أن تؤخذ بحقها، عندما تتوافر لها المؤهلات ومنها مثلا النزاهة والأمانة والعدالة وسعة الأفق وحسن المعاملة.

ويمكن التفصيل في بعض الواجبات الفردية الأخرى إنما يفترض أننا نعرفها جميعا، لا سيما الخلقية والقيمية منها، مثل الصبر والمصابرة، واقتران العمل بالقول، والتوازن والانفتاح، والإتقان والمراجعة المتجددة، وغير ذلك مما تُلقى فيه الدروس والخطب وتعقد الندوات وتؤلف الكتب.. وهذا منذ زمن لا بأس به، ولا يغيب وجود بعض النتائج المرئية لذلك، ولكن لا يزعم أحد أننا بلغنا بهذا الصدد الحد الأدنى الواجب ليظهر مفعوله في حركة تطوير أنفسنا ومجتمعاتنا ظهورا ملحوظا ومؤثرا.. فأين الخلل؟

لو أجبنا فعلا على هذا السؤال لما تكرر طرحه مرارا.. ويبدو كأن العقدة كامنة في طريقة طرحه، التي تنطوي على تعويم المسؤولية الفردية والبحث عن الخلل في كل مكان ولكن خارج نطاقها إلا نادرا.

الدولة مسؤولة عن الخلل.. الجماعات مسؤولة.. العلماء.. الشباب.. الجيل الموشك على الرحيل.. الإسلاميون.. العلمانيون.. وهكذا، وكأننا لم نستوعب قط ما تعنيه كلمات: وكل آتيه يوم القيامة فردا، ولولا المسؤولية الفردية في كل ميدان من الميادين لما كان الحساب الأخير فرديا، ومجموع هذه الميادين هو طريق النهوض أو طريق التخلف.

ليس الدولة.. ولكن هذا السياسي بعينه مسؤول عن إنجازاته وعن أخطائه.. ليس العلماء.. بل هذا العالم بعينه، وليس الشباب بل كل شاب بعينه، وليس العلمانيون أو الإسلاميون بل كل واحد بمفرده مسؤول عما يعطي إصلاحا أو تخريبا، وبناء أو تدميرا.. فالخلل كامن فيما يصنعه كل فرد على حدة، والحصيلة هي عجزنا المشترك عن سلوك طريق الإنجاز أو النهوض، أو نمو طاقاتنا ومؤهلاتنا المشتركة والمتكاملة لسلوك هذا الطريق.

يستحيل على فرد مثلي أن يقف أمام عشرات أو مئات أو ألوف ويكتشف مواطن الخلل عند كل واحد منهم ليتحدث عنه ويطالب باستدراكه، ولكن كل فرد من الأفراد له شخصيته المستقلة، ونعمة العقل، يستطيع إذا صدق مع نفسه أن يكتشف الخلل أو مواطن الخلل المتعددة لديه، ويستطيع أن يحمل المسؤولية قبل الحساب من أجل استدراكها إن عزم وعمل.

إلى جانب ما سبق ذكره على وجه التعميم من واجبات فردية **أحسب أن واجب استكشاف مواطن الخلل الذاتية واستدراكها هو الواجب الفردي الأول والحاسم في قضية النهوض، وقد راوغنا عنه فقصرنا في أدائه جيلا بعد جيل من قبل، ونأمل ألا يفعل ذلك الجيل الذي وصلت إليه مسؤولية مسيرة النهوض الآن.**

وقفات معاصرة ونظرة استشرافية

عندما نتحدث عن نقلة حضارية قادمة لا نتحدث عن أمل ذاتي من منطلق واقعنا المتخلف بالمقاييس الحضارية فحسب، بل نتحدث عن أمل إنساني مشترك. وعندما نعبر عن الأمل في أن يحقق جيل النهوض شروطها في نفسه بنفسه لتتحقق تلك النقلة الحضارية، لا نتحدث فقط عن جيل النهوض في دائرتنا الحضارية، بل عن معالم تظهر تدريجيا في الدائرة الحضارية التي تفقد زمام تحقيق هدف السعادة الإنسانية حضاريا.

في العصور القديمة وجدت حضارات متجاورة بتواصل محدود، في حقب زمنية لم تعرف بعد ما نعرفه اليوم من وسائل الاتصال التي تكاد تلغي الحدود التقليدية، الجغرافية والاجتماعية. وليس من باب الاعتزاز بحضارتنا الإسلامية فحسب أن نقول إنها منذ البداية الأولى لوعاء منظومة قيمها تجاوزت الحدود الجغرافية والاجتماعية ما بين أطراف الأسرة البشرية، مما توجد دلائل عديدة عليه لا يجهلها من يتأمل في تلك المنظومة فيرى كيف **ربطت جميع مفرداتها الحضارية بجنس الإنسان، بغض النظر عن معتقده ولونه ولغته ومكانته الاجتماعية.**

ودون التعرض بالتفصيل للحضارة المهيمنة عالميا منذ قرون حتى الوقت الحاضر، يمكن التنويه إلى أن ثغرة الضعف الكبرى فيها موروثة كليا أو جزئيا عما سبقت سيطرته في دائرتها الجغرافية حول محور العنصرية والطبقية بأشكال متعددة، ومحور الصراع بأشكال مختلفة.

التمييز بين إنسان وإنسان وبين شعب وشعب وطبقة اجتماعية وأخرى محور موروث من العصور الإغريقية والرومانية القديمة وما تلاها. مثله في ذلك مثل محور الصراع، وهو الكلمة اللطيفة المعبرة عن سيادة شرعة الغاب، أو شرعة الأقوى، فحتى الحقوق الإنسانية الأساسية أصبح تحصيلها رهنا بجولات الصراع عليها.

عند ظهور المعالم الأولى لهذه الحضارة التي شاع وصفها بالحضارة المادية، كان ذلك مقبولا في مجتمعاتها الأولى بسبب سواد المظالم بالقوة وبالتالي كانت شرعنة استخدام القوة لإزالتها، ثم بدأ الانحراف تدريجيا في حقبة ما عرف بعصور الاكتشافات الجغرافية المقترنة بظاهرة الاستعمار، كما انعكس في التعامل الداخلي الذي انطوى على أن تحصيل حقوق النساء أو العمال أو الفقراء وغيرهم من فئات لا تملك ما يكفي من أسباب القوة الذاتية، ارتبط بخوض جولات صراع داخلية طويلة الأمد، فلم تحقق أهدافها البعيدة حتى اليوم.

على وجه التعميم في قضية تحتاج إلى تفصيل، نرصد كيف **أصبحت معادلة الهيمنة والتبعية، هي المعادلة التي تدور حولها سائر التطورات المعاصرة في نطاق الانتشار المحلي والعالمي للحضارة المادية الحالية.**

هذه المعادلة أصابها خلل كبير أنتجه التقدم التقني عبر ثورات الاتصال والتواصل في الدرجة الأولى، وبدأ ينتشر التطلع إلى التخلص منها، ومن مظاهره مع ملاحظة أن كلا منها يحتاج لتفصيل، ما انتشر من منظمات توصف بغير الحكومية أو غير الرسمية، في جميع الميادين بدءا بحقوق الإنسان انتهاء بأوضاع البيئة والمناخ، ومن مظاهره ازدياد نسبة التحركات الشعبية ضد السيطرة الأجنبية أو الاستبداد المحلي، ومن مظاهره تنامي مقاومة ظواهر معينة معبرة عن تغليب المطامع المادية على الحقوق الإنسانية كما هو الحال في قطاع التجارة

العالمية بالأدوية، ومن مظاهره ارتفاع نسبة العطاءات الفكرية الناقدة ذاتيا لما وصل إليه الخلل في البنية الهيكلية للمجتمعات المتقدمة حضاريا.

مثل هذه الإرهاصات لنقلة حضارية معروفةٌ تاريخيا مع اختلاف التفاصيل، إنما نشهد عناصر جديدة أيضا، يمكن الاكتفاء بذكر اثنين منها:

العنصر الأول: عوامل السيادة الحضارية المهيمنة في الوقت الحاضر أعمق وأرسخ وأوسع انتشارا وبالتالي أعظم تأثيرا على الأسرة البشرية والإنسان الفرد مما كان الحال عليه في دورات حضارية سابقة.

العنصر الثاني: ليست الإرهاصات الحضارية الجديدة حاليا محصورة جغرافيا في البقعة المؤهلة لاستلام زمام المسيرة الحضارية، كما كان عند بزوغ شمس الحضارة الإسلامية قبل انتشارها عالميا، أو عند ميلاد النهضة الحضارية الحالية في أوروبا قبل انتشارها عالميا أيضا.

إن هذين العنصرين بالذات يحددان المحور الأهم في استشراف ما ينبغي أن تتركز عليه الجهود في تأهيل جيل النهوض لنفسه لتحقيق هدف النهوض، ومن ذلك ما تعدده العناوين التالية في ختام هذا الحديث:

أولا:

هدف النهوض الحضاري لا يعني تقويض بنية الحضارة المادية المهيمنة حاليا، فمن شأن ذلك أن يلحق أضرارا كبيرة بجنس الإنسان، وليس بمن يهيمن ويسيطر ويسيء استخدام الإمكانات المتوافرة لديه.

ثانيا:

هدف النهوض الحضاري إذا بدأ تحقيقه من قلب دائرتنا الحضارية الإسلامية، لا بد أن يكون هدف حضارة إنسانية شاملة لجنس الإنسان، استنادا إلى وعاء المنظومة القيمية الإسلامية الإنسانية نفسها.

ثالثا:

التأهيل الذاتي للنهوض الحضاري مرتبط ارتباطا وثيقا بالتأهيل الذاتي للتواصل في عالمنا وعصرنا بعد أن اضمحل مفعول الحدود والحواجز بين البشر.

رابعا:

لا بد أن يتميز جوهر الرؤية الحضارية المستقبلية عن ثغرات الضعف في الواقع الحضاري المهيمن حاليا، لا سيما في محور العنصرية بجميع أشكالها وميادينها النوعية والجغرافية، ومحور غلبة الأقوى عبر الصراع بمختلف أشكاله.

خامسا:

ما يقال نظريا في مثل حوارنا اليوم لا قيمة له.. إلا بقدر ما تتم ترجمته إلى تطبيقات عملية، في ميادين المعرفة والوعي والعمل والتعاون والتكامل.

والسلام عليكم ورحمة الله

نبيل شبيب